المقالة الحادية عشر[1]

في التوبة والدينونة

الذي أنحضر من حضن الآب ؛ وصار لنا طريقاً للخلاص يعلمنا التوبة بصوته الإلهي قائلاً :" ما جئت لأدعو صديقين ؛ لكن خطاة إلى التوبة " .

وأيضاً : " الأصحاء لا يحتاجون طبيباً لكن المرضى " .

فإن كنت أنا أقول هذه الأقوال ؛ فلا تسمعني أصلاً ؛ وإن كان الرب نفسه يقولها ؛ فلِمَ تتهاون بحياتك متوانياً عنها .

إن عرفت أن لذاتك جراحات من الأفكار والأفعال غير مشفية ؛ فلماذا تتوانى في جراحاتك المكتومة ؟ ماذا تخاف ؟ أمن الطبيب ، ليس قاسياً ؛ ولا عادم التحنن ؛ ولا فاقد الرحمة . لا يستعمل بطراً ؛ ولا دواء مراً وكاوياً ؛ لأنه يداوي بالكلام فقط .

إن شئت أن تتقدم إليه هو مملوء خيرية وموعوب تحنناً ؛ جاء من أجلك من حضن الآب ، ومن أجلك تجسد لتتقدم إليه بلا خوف ، من أجلك تأنس ليشفي جراحاتك الخفية .

وبمحبة جزيلة وخيرية غزيرة يدعوك قائلاً : أيها الخاطئ تقدم وأبرأ بسهولة ؛ أطرح عنك ثقل الخطايا ؛ قدم تضرعاً ؛ ضع على قيح جراحاتك دموعاً ، لأن هذا الطبيب السماوي الصالح يشفي الجراحات بالدموع والتنهد .

تقدم أيها الخاطئ إلى الطبيب الصالح ؛ وقدم العبرات وهو الدواء البليغ الجودة ، فإن الطبيب السماوي يشاء أن يبرأ كل أحد بعبراته ؛ فليس مستصعباً أن تشفي جراحاتك بالدموع ، لأن هذا الدواء لا يبطئ بالشفاء ولا يضمد به مكرراً ولا يشنج الجرح بل في الحال يبرأ بلا وجع .

فالطبيب متوقع أن يبصر دموعك . تقدم ولا تجزع ، أره الجرح وائتى بالدواء ؛ ائتى بالدموع والتنهد فإنه بِها فتح باب التوبة ، تبادر أيها الخاطئ قبل أن يغلق الباب ؛ ولا تنتظر وقتاً يوافق ونيتك؛ لئلا يبصرك البواب مضجعاً ؛ أتروم أن تدوم في تَهاونك .

يا شقي لِمَ تبغض حياتك ، أيها الإنسان ماذا يكون أسمى علواً من نفسك ، وأنت أيها الخاطئ قد تَهاونت بِها ، هل تعلم أيها الحبيب في أي ساعة يأمر الطبيب السماوي فيغلق باب مداواته ، أطلب إليك أن تتقدم وتحرص أن تبرأ ؛ فإنه يشاء أن يفرح بتوبتك الموكب السماوي .

الشمس قد بلغت إلى الساعة المسائية ؛ ووقفت من أجلك إلى أن تبلغ إلى المنزل ، فإلى متى تحتمل العدو النجس مكملاً بلا خجل مشيئته ؛ لأنه يتمنى أن يزجك في النار ، هذا هو حرصه ؛ وهذه هي موهبته التي يمنحها للذين يحبونه .

فهو يحارب دائماً بالشهوات الرديئة والنجسة الناس أجمعين ، ويفضي بالذين يذعنون له إلى اليأس ، يقسي القلب وينشف الدموع لئلا يتخشع الخاطئ .

فأهرب منه أيها الإنسان ؛ أمقت وأرفض مأثوراته ، أبغض الخبيث وفر من الغاش ؛ فإنه قتال للناس منذ الابتداء وإلى الانتهاء ، أهرب منه أيها الإنسان لئلا يقتلك .

أسمع أيها الحبيب الصوت القائل كل وقت : " هلموا إليَّ يا جماعة المتعوبين والموقرين وأنا أريحكم ، احملوا نيري وتعلموا مني فإنني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لأنفسكم " .

---

[1] كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

يقول أنه يعطيك راحة وحياة فلِمَ تتوانى ، ولِمَ تجوز يوماً فيوماً ، تقدم ولا تجزع فإن السيد صالح ومتحنن غير محتاج وغني لا يطلب إحصاء كافة خطاياك ، هو الملجأ الذي يلتجئ إليه سائر من به الآلام .

يشفي الجراحات ويهب الحياة بلا حسد ، لأنه صالح يقبل بسهولة كافة الذين يخرون ساجدين لأنه هو الإله الأعظم وسابق علمه ، يعرف سائر رؤيتنا وأفكارنا ؛ يبرئ الإنسان إذا تقدم إليه ، لأنه يعاين قلبه وكافة نشاطه إذا دنا إليه مؤمناً بفكر غير منتقل .

فالإله الصالح بخيريته موجود للذين يبتغونه ؛ ومن قبل أن يرفع الإنسان نظره إليه يقول له : قد حضرت . وقبل أن يدنو منه يفتح له كنزه ، وقبل أن يهمل دموعه يسكب كنوزه ، وقبل أن يتضرع إليه يصالحه ، وقبل أن يبتهل إليه ينال الرحمة لأن محبة الله بخلوص تشتاق هكذا .

والذين يقبلون إليه لا يبطئ عن الاستماع لهم ، لا يشكو من يقبل إليه قائلاً : لِمَ خدمت العدو مثل هذا الزمان وتَهاونت بي عمداً . لا يطلب كمية الزمان السالف ، إنما يطلب السيد ممن يسكب أمامه تواضعاً ودموعاً وتنهداً .

لأن إلهنا وجابلنا هو سابق العلم ؛ فيغفر في الحين كافة مآثمه ؛ وكل هفوات أفكاره وأفعاله ويأمر بإحضار الحلة الأولى ، ويجعل خاتماً في يده اليمنى ، ويأمر جماعة الملائكة أن يسروا معاً بوجود نفس الخاطئ فمغبوطون نحن الناس أجمع ؛ فإن لنا سيداً حلواً غير حقود صالحاً .

رؤوفاً متحنناً طويل المهل ، غافر كل حين نفاقنا عندما نشاء ، فها هو يعزي ويتمهل ، هوذا يمنحنا كل خيراته في هذا الدهر وهناك إن شئنا .

هلموا فلنتضرع إليه ما دام لنا زمان ؛ فإننا ما دمنا في هذا العالم نستطيع كل وقت أن نستعطف السيد ، ويسهل علينا أن نطلب غفراناً ، ويتيسر لنا أن نقرع باب تحننه .

فلنسكب العبرات مادام يوجد وقت تقبل فيه الدموع لئلا ننصرف إلى ذلك الدهر فنبكي بكاءً غير نافع ؛ لأنه هناك تحسب الدموع لا شئ ، فبمقدار ما نشاء ؛ بقدر ذلك يغفر لنا الإله الصالح ؛ لأنه يستجيب لنا إذا استغثنا به ؛ ويغفر إذا تضرعنا إليه ، يمحو آثامنا إذا أحسنا عزمنا لقريبنا .

هنا التعزية وهناك المطالبة ، هنا طول التمهل وهناك الصرامة ، هنا الراحة وهناك الضيقة ، هنا امتلاك السلطة على الذات وهناك مجلس القضاء ، هنا التمتع وهناك العذاب ، هنا التغطرس وهناك العقاب ، هنا الضحك وهناك البكاء ، هنا إهمال السيرة وهناك التعذيب .

هنا التهاون وهناك النار الأبدية ، هنا التزين وهناك الولولة ، هنا التصلف وهناك التذلل ، هنا الاختطاف وهناك قعقعة الأسنان ، هنا الخدور المذهبة وهناك الظلمة المدلهمة ، هنا التواني وهناك تبقى خطايا الكل غير مغفورة .

فإذ قد عرفنا هذه يا إخوتي الأحباء فلِمَ نضجع في خلاصنا ، لا يتسمر يا إخوتي عقلنا هنا ، لا يحل لنا محبة الأشياء الأرضية لئلا يصير بكاؤنا هناك مراً .

ولِمَ نتهاون غير مريدين أن نخلص ما دام الوقت موجوداً ؛ يغفر الله بالدموع وبالتوبة في هذا الوقت اليسير سائر الهفوات .

أبكِ هنا قليلاً لئلا تبكِ هناك الدهر في الظلمة البرانية ، أحذر جيداً هنا لئلا تلقى هناك في النار التي لا تخمد ، من لا ينوح علينا ومن لا يبكي ، قد أبغضنا الحياة وأحببنا الموت ، تأمل يا أخي الشقيق ؛ وأختر الأفضل والموافق لنفسك ؛ وأنظر أية صعوبة تلحقك دائماً .

أتبكي هنا على خطاياك وتتضرع لتصير بالتوبة خالص الود ؛ أو تبكي هناك في النار ولا ينفعك شيء ، لأنك إذا بكيت هنا تنال راحة مع كل تعزية ، وهناك إذا بكيت تذهب إلى العذاب .

أعطِ قليلاً لكي ما يسمح لك بديون نفسك ، فإن لم تريد أن تقضى هنا من الكثير قليلاً فهناك ستجازي عما عليك من الديون بعذاب كثير .

فهذه الأقوال يا إخوتي المحبين للـه خاطبت بِها مودتكم المأثورة ليس لكوني مستحقاً وطاهراً في سيرتي ؛ وعائشاً بالطهارة ؛ بل لوجع وحزن وضغطة قلب مخطراً بذهني ما هو معد لنا ونحن متوانون مضجعون .

أنا يا إخوتي نجس أنا منافق في سيري بأفكاري وأفعالي غير عارف من ذاتي بالكلية شيئاً صالحاً، أنا متراخي وخاطئ في نيتي وعزمي ؛ وهذه الأقوال إنما أقولها لألفتكم لأن الحزن مطيف بقلبي من أجل دينونة اللـه العتيدة الرهيبة ؛ لأننا كلنا متهاونون ونظن أننا نعيش في هذا العالم الباطل إلى أبد الدهر ، والدهر يعبر والأشياء التي فيه كلها .

ونحن يا أحبائي سنطالب بجواب عن هذه الأمور كلها ؛ لأننا عارفون المناقب النفيسة ؛ وعاملون الأفعال الرديئة ؛ ونتهاون بمحبة المسيح الإله وملكه ؛ ونكرم الأرض وجميع الأشياء التي فيها .

إن الفضة والذهب لا تنقذنا من النار الرهيبة ؛ والثياب والتنعم يوجد هنا لدينونتنا .

فالأخ لن يفتدي أخاه ، والأب لا يفتدى ابنه ، لكن كل واحد يقف في مقام رتبته في الحياة أو في النار .

لقد تجرد القديسون والصديقون والأبرار من هذا العالم وأموره باختيارهم ، وبرجاء وصايا اللـه الصالحة أيقنوا أنَهم يتمتعون بخيراته في فردوس النعيم .

لأنـهم تاقوا إلى المسيح وأكرموه إكراماً كثيراً ، وتعروا من الأشياء البالية ؛ فلذلك هم مبتهجون كل حين باللـه ، ومستضيئون بالمسيح ؛ ومسرورون بالروح القدس دائماً، والثالوث الأقدس يبتهج بِهم ، وتستبشر بـهم الملائكة ورؤساء الملائكة ، ويتباهى بِهم فردوس النعيم .

بالحقيقة هؤلاء هم الممدوحون المشرفون المغبوطون ، كل وقت يطوبِهم الملائكة والناس لأنَهم أكرموا محبة اللـه إكراماً فوق العالم أجمع ؛ فوهب لهم الإله القدوس المحق ملكوته ؛ وأعطاهم مجداً أعظم أن يبصروه بسرور مع الملائكة القديسين كل حين .

وكثيرون من الناس اشتاقوا إلى الأرض وإلى الأشياء البالية التي فيها ، فتسمر عقلهم كل وقت فيها ، وأغذوا أجسامهم بالأغذية كالبهائم كأن هذا العالم عندهم باقٍ لا يموت .

ماذا تصنع أيها الإنسان إذ تسير كبهيمة لا نطق لها . قد خلقكَ اللـه فهيماً مميزاً فلا تماثل بعدم التمييز البهائم الفاقدة الفهم .

فق أيها الإنسان قليلاً ؛ وعُد إلى ذاتك ؛ وأعرف بما أنك فهيم أنه من أجلك أقبل الإله الأعلى من السماء ليرفعك من الأرض إلى السماء وقد دعيت إلى عرس الختن السمائي فلِمَ تتهاون ؟ لِمَ تستصعب الأمر ؟ قل لي كيف يمكنك أن تذهب إلى العرس وليست لك حلة عرس فاخرة ؟

وإن لم تمسك مصباحاً ؛ فكيف يمكنك الدخول ؟ وإن دخلت متهاوناً فتسمع في الحال صوت الختن: يا صاحب كيف دخلت متهاوناً إلى العرس وليس عليك لباس عرس ملكي .

تَهاونت ودخلت لتصنع بعريتك استخفافاً بملكوتي ؛ ثم يقول الملك لغلمانه : شدوا يدي هذا الشقي ورجليه معاً ؛ وزجوه في أتون النار ليتعذب هناك إلى أبد الدهر . لأنني أنا منذ مدة كبيرة جئت ودعيت الكافة إلى العرس ؛ فهذا أستحقر دعوتي ولم يعد له لباس العرس ؛ فلهذا أمركم أن تعذبوا هذا الشقي لأنه تَهاون بمملكتي .

أتراك أيها الإنسان لا ترهب هذه ؛ ولا ترتعد منها فزعاً ؛ من دنو إشراق الختن ؛ أما قد علمت أن كافة البرايا متوقعة للمثول أمامه ؛ والصور السماوي ينتظر صوته .

فماذا تصنع هناك في تلك الساعة إن لم تكن مستعداً قبلها ؟ هيئ ذاتك لتلك الساعة للغبطة الإلهية؛ لأنه يطوب اللـه المستحقين والصور السماوي يبوق من السماء ويقول : أيها المحبون للمسيح انْهضوا فها قد ورد الملك السماوي ليعطيكم نياحة وسروراً في الحياة الخالدة عوض تعب نسككم .

انْهضوا وأبصروا المسيح الملك الختن الذي لا يموت الذي تقتم إليه ، لأنكم حين تقتم إليه صرتم من أجله سكاناً على الأرض ، أنْهضوا فعاينوا نضارة بَهائه ، قوموا فشاهدوا مملكته التي أعدها لكم .

أنْهضوا وانظروا إلى المسيح شوقكم ، قوموا فأبصروا الرب الذي لا يشبع منه الذي أحببتموه وتألمتم من أجله .

تعالوا فأبصروا الذي اشتهيتموه بدالة جزيلة ؛ وأفرحوا معه فرحاً لا ينعت ؛ ولن ينتزع أحد منكم فرحكم .

هلموا فتمتعوا بالخيرات التي لم تبصرها عين ولم تسمعها أذن ولم تخطر على قلب الناس التي يهبها لنا هذا المحبوب . فيخطف القديسين في السحب لاستقباله ؛ ويطير الصديقون والمستحقون لله في علو الهواء بمجد لا يقدر ليعاينوا الملك السمائي الباقي .

فمن هو ترى المستحق أن يخطف في تلك الساعة إلى التقاء المسيح بفرح عظيم ؟ يخطف المستحقون كلهم بمجد ؛ والمنافقون يبقون أسفل بخزي عظيم .

فالطوبى والسرور للحريصين هنا ؛ والعذاب والخزي لجماعة الخطاة ، مغبوط ذلك الذي قد حرص هنا أن يوجد مستحقاً لتلك الساعة ؛ وشقي ذاك الذي جعل ذاته غير مستحق لتلك الساعة .

فالسحب تخطف القديسين من الأرض إلى السماء ؛ والملائكة يخطفون أيضاً المنافقين ليلقوهم في أتون النار التي لا تطفأ .

من يعطي لرأسي مياهاً لا تقدر ، ولعيني عيناً نابعة دموعاً دائماً ما دام يوجد وقت تنفع فيه العبرات ، فأبكي على نفسي النهار والليل متضرعاً إلى الله ألا أوجد في ساعة وروده غير مستحق ؛ ولا أسمع قضية السيد الرهيبة عني : " أنصرف يا عامل الإثم لست أعرفك من أنت " .

أيها الإله الأعلى الذي لا يموت وحده ؛ أعطيني أنا الخاطئ في تلك الساعة رأفاتك الجزيلة لكي لا يظهر نفاقي المكتوم أمام الناظرين الملائكة ورؤساء الملائكة ، الأنبياء والرسل ، الصديقون والقديسون . بل أحفظ المنافق بنعمتك ورأفاتك ، وأدخله إلى فردوس النعيم مع الصديقين الكاملين ، أقبل طلبة عبدك أيها السيد بشفاعة القديسين الذين أرضوك .

والسبح لك يا ربنا يسوع المسيح . آمين .